نظم الاستيطان في العراق القديم ومناطق في الوطن العربي

د. صباح جاسم الشكري

مقدمة

لا يخفى عن الأذهان ما للبيئة الطبيعية من اثر على كثير من مفردات حياة الإنسان، قديماً وحديثاً، فمنذ خطواته الأولى على طريق التحضر كان لا يألو جهداً في استخدام ما هو متيسر في البيئة الطبيعية المحيطة به، من اجل البناء والنماء. وعبر مراحل هامة من ابتكاراته، أدرك الإنسان أن لامناص من أن يتعايش مع البيئة الطبيعية حوله، يأخذ منها الكثير ويرد إليها ما أمكن من عطاء تمثل في انجازات حضارية أهلته لان يطوعها من اجل استثمار أمثل لها... فكان من ابرز ملامح صلته بها أن انشأ فيها مواضع استيطان له.

مر هذا الاستيطان بمرحلتين زمنيتين رئيستين هما: مرحلة جمع القوت التي استغرقت جل حياة الإنسان على الأرض، ثم مرحلة إنتاج القوت التي بدأت في أوائل العصر الحجري الحديث (Neolithic) والمعروف جيولوجيا" باسم (Holocene \ Recent) قبل ١١٠٠٠ سنة مضت المرحلة الثانية هذه شهدت مراحل التطور الإنساني الحقيقي والخطوات الأولى نحو حضارتنا الراهنة. فكان اكتشاف الزراعة المنعطف الكبير في مسيرة الحضارات الإنسانية: والحافز الرئيس للاستقرار في أماكن ثابتة ودائمة يلجأ إليها. وبصرف النظر عن السكن في الكهوف والمغاور لفترات زمنية طويلة خلال العصور الحجرية، والتي كانت خياره الوحيد في إيجاد المأوى كانت مرحلة توافق مع البيئة الطبيعية، نخص منها الفترة بين الألفين التاسع والسابع قبل الميلاد. تمثلت خطوة التوافق بينهما في إقامة أولى المباني المنفردة البسيطة حيث أعطت شمالي البلاد الدليل على السكن المشيد في كل من مواقع نمريك وملفعات وقرمز دره.

نماذج مهمة من العراق – الهضبة الغربية

تنتشر المواقع الأثرية في حوض سد حديثة حيث بلغ عددها الإجمالي (٨٢) موقعا"، تمتد على ضفاف جانبي نهر الفرات أو تنتشر عند مقترباته. المجموعة الأولى تقع أما في داخل أو على مشارف شريط ضيق من الأراضي الزراعية الممتدة بمحاذاة ذلك النهر.

قبل الغمر تتضمن منطقة الدراسة عدد من القرى الزراعية الحديثة ينيف عددها عن التسعين قرية تمتد هي الأخرى على جانبي الفرات كما يقع في حوض السد كل من مدينتي عانة وراوه، الأولى شملها الغمر تماما والثانية بقي قسمها الأعلى. بما في ذلك المباني السكنية والمحال التجارية والمنشآت الأخرى خارج منطقة الغمر اما قسمها الأسفل الذي يضم النخيل الزراعية الوافرة فلم تكن اوفر حظا من عانة . أشرت أعمال المسح الآثاري والتنقيبات التي أجريت في حوض السد وجود عدد من مواقع الاستيطان اقدمها ترجع في تاريخها الى عصور قبل التاريخ وتوالي الاستيطان فيها خلال العصور التاريخية لتمتد حتى الوقت الحاضر(١).

هذا في الواقع يشير الى أهمية المنطقة واستمرارية الحياة فيها منذ عصور سحيقة بل منذ أقدم استيطان بشري عرفه العراق . فقد أمدتنا التنقيبات التي أجريت هنا بأدوات حجرية مختلفة تقدر اعمار أقدمها بنحو نصف مليون سنة قبل الوقت الحاضر أو ما ينيف عن ذلك . هذا في الوقت الذي كنا حتى

وقت إجراء المسوحات والتوغل في دراسة تفاصيل المواقع هنا لا تملك دليلا عن استيطان في العراق اقدم من (١٠٠٠٠٠) سنة قبل الوقت الحاضر وذلك من خلال الأدوات الحجرية المكتشفة في موقع بردة بلكا قرب جمجمال في محافظة كركوك[٢].

إن توفر الأدوات الحجرية التي تمثل العصور الحجرية في منطقة الدراسة تشير الى ظروف مناخية وبيئية مناسبة وبالتالي توفر وسائل العيش بشكل كاف. تتضمن تلك الوسائل إضافة للنباتات والحيوانات المتوفرة وجود النهر كمصدر للماء والطعام (أي تتوفر الحياة المائية فيه).

على الرغم مما تقدم لم نعثر في منطقة الفرات الأوسط على أي واحد من المواقع التي تمثل فترات ظهور القرى الزراعية في العصر الحجري الحديث (مثل جرمو، حسونة، حلف، سامراء، والعبيد ....الخ) .

نعني بذلك أن منطقة الفرات الأوسط قد بقيت خارج إطار التطور الثقافي. عبر فترات العصر الحجري الحديث، وكذلك الحال خلال فترة ظهور المدنية في العراق في عصر العبيد (الالف الخامس قبل الميلاد) وحتى بداية الألف الثالث قبل الميلاد كما سيرد ذلك. أن شحة الزراعة وعدم وجود الحيوان وأية عوامل تفتقر إليها حياة الإنسان ليست لها أية علاقة بتغير مناخي او عوامل بيئية أخرى أعاقت الاستيطان هنا وإنما نرجح أن ذلك يرجع للافتقار الى تكنولوجيا تؤهل لممارسة أعمال الزراعة الدائمة التي استعاض عنها سكان الشمال بالزراعة المطرية (الديمية أو البعلية) وسهولة الإرواء في الأراضي السهلية بالنسبة لسكان الجنوب. لذلك يمكن القول بعدم وجود المجتمعات الزراعية الأولى في منطقة الدراسة . ومن خلال الدليل الآثاري لاحظنا ان الاستيطان في منطقة الدراسة خلال العصور القديمة وفترات الحضارات التاريخية في العراق، وبصورة أدق عصر السلالات الثاني والفترات التالية بالنسبة للعصور التاريخية[٣].

ويلاحظ في منطقة الفرات الأوسط إن أهم الخصائص التي تميز بها الاستيطان هنا خلال العصور التاريخية هي أن الزراعة والسكن قد حددا بشكل رئيس بشريط نهري ضيق من الأرض الصالحة للزراعة تمتد على جانبي الفرات، وامتداد هذا الاستيطان الى ثلاثة جزر تتوسط النهر: هي جزيرة عانة، تلبس، وبيجان.

لذلك نجد أن جميع مراكز الاستيطان (Central Places) تعد في مساحاتها بمستوى المدن الصغيرة (Towns) إذا ما قورنت مع المستوطنات المعاصرة لها في القسم الجنوبي من العراق والقائمة على دجلة والفرات وما يتفرع عنهما من شبكات للقنوات الاروائية . إلا أن هذه المدن الصغيرة تشترك بالصفات العامة مع مراكز المدن (Cities) التي عرفت في جنوبي البلاد[٤].

إن المنطقة لم تزودنا بتفصيلات حول إمكان تحقيق كثافة سكانية عالية كالتي نجدها في جنوبي العراق وحتى إنشاء مراكز استيطان ضخمة في الجنوب والوسط وفي الشمال حيث شيدت فيها العديد من الزقورات والمعابد الكبيرة، بل و حتى مشاريع إرواء واسعة ومتفرعة.

إن المستوطن المسور طعس الكفار (في قرية السواري بأسفل عانة) يعد المؤشر الأول للمجتمعات الزراعية بمنطقة الفرات الأوسط وهو يرجع في تاريخه الى الألف الثالث قبل الميلاد. ومن خلال تزايد المواقع الأثرية التي ترجع الى النصف الأول للألف الثاني قبل الميلاد (أي فترات ايسن لارسا ٢٠١٢---١٧٦٣ق.م.) والبابلي القديم (١٨٩٤-١٥٩٥ق.م.) لابد أن يكون استيطان واسع وكثافة

سكانية عالية أدت الى الاتساع في استخدام الأرض الزراعية بمنطقة الدراسة واحتمال استخدام (الدواليب) وهي تدور بقوة تيار الماء والتي نجدها حتى هذا اليوم .

إن استخدام الدواليب للسقي هنا يعد في رأينا تحديدا للظروف البيئية (بين عانة وبلدة الكرابلة / مدينة خندانو الآشورية) وتحوله من موقع صغير الى مستوطن ذا سور حجري وتخطيط داخلي جيد عرف تاريخيا باسم مدينة خرادم خلال العصر البابلي القديم(٥).

لقد بدا لنا واضحا من خلال دراسة المواد الحضارية لمواقع الفرات الأوسط وان التغير في صفة أو وظيفة المواقع الأثرية (المستوطنات)بالمنطقة قد ابتدأ خلال النصف الثاني للألف الثاني قبل الميلاد (أي العصر البابلي الوسيط (١٥٩٤-١١١٥ق.م) وع (١٣٥٠-٩٠٠ ق.م) فقد ظهرت في هذه الفترة بعض التحصينات والمواضع العسكرية ضمت مدافن ونقاط انتشار للقي الأثرية فقط.

إن أنشاء المعسكرات الآشورية في عهد الامبراطورية (٩٣٠-٦١٢ق.م) وتحشيد الجيوش لحماية مشارف الدولة الاشورية ومصالحها الاقتصادية في الفترة المذكورة قد شكلت مرحلة جديدة في تاريخ منطقة الفرات الاوسط.

إن الدليل الآثاري الذي يرجع في تاريخه الى النصف الاول للألف الاول قبل الميلاد هو عدم وجود المعسكرات الدائمة المشيدة وأية مباني أخرى يشير الى تطور كبير في الجيش الآشوري نلاحظه من خلال الدراسة الدقيقة لطبوغرافية المنطقة استخدام النهر كحاجز دفاعي رابع، وكذلك من خلال التوزيع الستراتيجي لتلك المواقع الحربية.

لم يتوفر الدليل الآثاري لأي نوع من الاستيطان خلال فترة الاحتلال الفارسي الاخميني (٥٣٩-٣٣٠ ق.م) في المنطقة، وان التواجد هنا خلال العصر السلوقي/ الاغريقي (٣١١-٦٤ قبل الميلاد) قد تركز في جزيرة القلعة في مدينة عانه.

ان حجم التواجد الروماني (١٧١ق.م-٣٠٠م) في منطقة الفرات الأوسط خلال نهاية الألف الأول قبل الميلاد والنصف الأول الميلادي يعد ثاني أوسع استيطان بمنطقة الدراسة علما بأنه اقل بكثير مما هو عليه الحال في عهد الامبراطورية الآشورية فقد استخدمت منطقة الفرات الأوسط حدودا للدولة الرومانية ضد الفرس البارثيين ومن بعدهم الساسانيين. بين المواقع الاثرية التي شغلها الرومان هنا يعد موقع كفرين (على الجانب الشرقي للنهر كأوسع المستوطنات وأهمها خلال الفترة المذكورة).

إن حجم الاستيطان في منطقة الفرات الأوسط خلال العصر الإسلامي يعد صغيرا إذا ما قورن بأرض السواد في جنوبي العراق. إلا أن المستوطنات هنا قد أمدتنا بنفس التسلسل التاريخي الإسلامي المعروف في الأماكن الأخرى من العراق. ان المواقع الإسلامية الأولى (اي التي ترجع الى الفترات الإسلامية المبكرة) وحتى انهيار الدولة العباسية كانت على اقلها عددا في منطقة الدراسة. يشير لنا ذلك بوضوح أن هذه المنطقة لم تكن منطقة جذب لهجرة المسلمين من مراكز المدن والأراضي الزراعية الغنية في ارض السواد خصوصا" في فترة ازدهار الدولة العباسية خلال الأدوار الإسلامية اللاحقة حيث طغى عدد القرى الزراعية على المراكز الحضارية في المنطقة. إلا أن المنطقة لم تكن بعيدة عن الأحداث السياسية التي شهدها العصر الإسلامي. ونخص بالمركز ظهور السلالات الصغيرة التي طالت المنطقة. إن أوسع استيطان متمدن من العصر الإسلامي هنا يمكن إرجاعه الى فترة السلالة العربية العقيلية التي حكمت الموصل للفترة بين (٣٨٠-٤٨٩هجرية/٩٩٠-١٠٩٥ ميلادية). ترك العقيليون هنا ابرز الأبنية التذكارية ذات الطراز العماري الإسلامي المميز، ذلك هو المئذنة المثمنة

في جزيرة القلعة بمدينة عانة. وإنشاء مئذنة مشابهة لها،اصغر منها حجما"في موقع الخليلية على الجانب الشرقي للنهر أسفل جزيرة عانة.ومن العهد العثماني في فترة حكم السلالة المحلية بقبيلة ابو ريشة تشمخ اكبر القباب في منطقة الفرات الأوسط، ألا وهي قبة جامع مشهد. ضمت القبة زخارف ملونة وعناصر عمارية مختلفة مع نص كتابي مطول يطوق أعلى جدرانها في الداخل وهو مؤرخ في عهد السلطان العثماني احمد الاول (١٠١٢-١٠٢٦ هجرية/١٦٠٣-١٦١٧)[٦].

وفـــي نقلة الى الطبيعة الجغرافية للمنطقة،ولعلاقة ذلك بنظم الاستيطان فيها،لاحظنا من خلال دراسة الدليل الآثاري والطبيعة التكوينية لأراضيها أن مجرى نهر الفرات كان منذ أقدم استيطان عليه قبل الوقت الحاضر. عندما نأخذ بنظر الاعتبار موقع المصنع وهو يقع مباشرة على الكتف الشرقي للنهر، نلاحظ بوضوح ان الفرات لم يكن ذا فاعلية في نحت الأكتاف الصخرية المطلة عليه، وما نشهده اليوم من مواضع انتشار للأدوات الحجرية مبعثرة في أسفل حوض سد حديث. إلا أنه مع ذلك نجد أن القلاع الحربية التي ترجع للنصف الاول من الالف الأول قبل الميلاد والتي أحيطت بأسوار من ثلاثة جوانب مع استخدام النهر كجانب تحصيني رابع .هذه القلاع قد أظهرت لنا تغيرات بسيطة في مجرى النهر، إلا أن التغيرات لم تتعد الشريط الضيق للأرض الزراعية التي تحيط بجانبي النهر. نلاحظ هذه الظاهرة بشكل خاص على الجانب الشرقي للنهر في المنطقة المحصورة بين سور تلبس (مقابل حويجة تلبس اسفل عانة وبين موقع طعس الكفار في قرية السواري وهـــو واحـــد من المحطات التجارية السومرية على طريق بلاد سومر وشرقي البحر الأبيض المتوسط. من جانب آخـــر نجد أن الشريط الزراعي الكائن على الجانب الشرقي للفرات بين مدينة عانة وبين المواقع الأثريـــة المحيطة بالقوس النهري القريب من بناية السد في منطقة ابو شابور هي ارض خصبة تتميز بجودة تربتها. وفي المنطقة الكائنة بين عانة وقرية النفيلي تتركز اضخم القلاع الحربية والمعسكرات المؤقتة وهي مجتمعاً تشكل شبكة من المواقع الحربية التي لا يمكن اقامتها دون توفر حقول زراعية غزيرة الانتاج. والى سنوات قريبة (ونعني بذلك قبل إكمال مراحل الغمر بخزان السد ١٩٨٥). نجد أن هذا الجزء من الخزان ليس فقط يتضمن العدد الاكبر من القرى الزراعية الخصبة قياساً بعموم منطقة الدراسة. إن نظام توفر الموارد الغذائية (Sufsistance System) بمنطقة الدراسة لم يكن في اعتقادنا مختلفاً في الماضي عنه في الوقت الحاضر. فالسكان القاطنين في قرى المنطقة يعملون كمزارعين، في الوقت الذي يعمل البعض منهم رعاة لمواشي هم يجوبون الصحراء الغربية وأراضي الجزيرة في موسم الربيع. هذا النظام المعيشي يتماشى مع نمط حياة القبائل شبه البدوية التي عرفت هنا وفي جميع مناطق المشرق العربي على الأقل منذ بداية الالف الثاني قبل الميلاد والتي سبقت الإشارة إليها، حيث أظهرت منطقة الفرات الأوسط أثار عصور أيسن – لارسا والبابلي القديم. واستناداً للنصوص التي وصلتنـــا من فترة حكم (Ninurt-usur\Kudurri) حوالي (٧٥٠ق.م) الذي حكم بلاد سوخو (اي منطقـــة الفـــرات الاوسط). ولمدة سبعة سنوات. إن زراعة الحدائق والحقول الزراعية الصغيرة قد مورست في هذه المنطقة آنذاك كما هو عليه الحال في الوقت الحاضر. تشكل الأراضي الزراعية هنا مساحات صغيرة تدار من قبل مالكيها وهم العوائل أو من يرتبط بها من ابناء القبيلة عن طريق الإيجار أو التعاقد.

قبل إنهاء هذا الإيجاز عن نظم الاستيطان في سد حديثة لابد من التعرض لبعض الملاحظات الهامة التي استنتجناها خلال دراسة المنطقة ، ذلك هو أن العامل الذي لعب الدور الأهم في تأريخ الاستيطان هنا هو وجود نهر الفرات، ويليه في الأولوية هي طبيعة الأرض .

لقد ارتبط السكن هنا بهذين العاملين الطبيعيين وليس مباشرة بعوامل البيئة، في الواقع نجد أن العاملين المشار إليهما كانا ولا يزالان وراء نظام الاستيطان في هذه المنطقة من العراق .إن تراكم جميع المواقع الأثرية التاريخية ضمن حدود الشريط الزراعي المحيط بالنهر يدل بشكل قاطع الى أن إقامة مراكز استيطان كبيرة هنا أمراً مستحيلا تحت هذه الظروف الطبيعية.

إن أي مشروع لتطوير المنطقة وان أي محاولة لإقامة مستوطنات فوق الهضبة على امتداد بحيرة السد مثل إنشاء سكن دائم للمجتمعات التي تهدف الى إنماء المنطقة اقتصاديا، وإنشاء القرى السياحية على ضفاف البحيرة لا يمكن أن تأخذ طريقها للنجاح ما لم تتم إقامة مشاريع للإرواء الاصطناعي وأبرزها استخدام طريقة الرش.

إن حفر الآبار الارتوازية لتوفير مياه الشرب وسقي الأراضي البعيدة نسبيا عن البحيرة تعد عملية ناجعة لاستصلاح الأراضي المتروكة جراء التصحر وقلة الماء عند مقتربات الفرات. يضاف الى ذلك أن إمكان إنشاء مستوطنات. ربما صغيرة على امتداد بحيرة السد ستسهل عملية ارتباط كل من مدينتي راوة وحديثة بخطين من القرى عبر أراضي الجزيرة المنبسطة يتم بواسطتها أحيـــاء الطريق العام القديم الذي يتجه نحو الموصل عبر مدينة الحضر التاريخية.

نظم الاستيطان في الوطن العربي

خلال العصور الحجرية القديمة والمراحل الأولى للعصر الحجري الحديث لم تكن الجماعات البشرية الصغيرة بالمشرق العربي تملك خياراً غير الارتباط مكانياً بالكهوف والمغاور. ولكن هذا الخيار لم يكن جزءاً من العوامل البيئية الضرورية للحياة اليومية لمجتمعات المشرق العربي وأبرزها "مصادر العيش" كالحيوانات والنباتات البرية، إضافة لتوفير المياه. ولاريب أننا لا نتوقع في منطقة كهذه أن تقف على نمط استيطاني محدد يكون للإنسان حرية الخيار فيه . بل على العكس من ذلك، نجد أن البيئة الطبيعية هي التي تتحكم في توزيع الجماعات خلال العصور القديمة. لذلـــك نجد الاستيطان مبعثر في شكله العام (Random Pattern of Distribution) كما هي الكهوف المتفرقة التي نجدها في المناطق الجبلية في شمالي العراق وفي فلسطين واليمن وبلدان شمالي افريقيا. فالاستيطان هنا لم يسمح بتجمعات سكانية أكثر مما يتسع المكان المحدد، أي الكهف أو مجموعة الكهوف الصغيرة المتقاربة في بعض الحالات. إضافة لذلك كان الاستيطان مقيدا بالمستويات المتفاوتة للمناطق الجبلية تبعا للتكوينات الصخرية تضم الكهوف، وطبيعة التغيرات التكوينية التـــي تعرضت لها تلك التكوينات. وكما هو الحال بالنسبة للكهوف.. تفدم لنا حقبة العصور الحجرية القديمة، ومنذ حوالي نصف مليون سنة دلالات لنمط آخر من الاستيطان، ساعد على ظهوره حصول فترات دفئ المناخ.. تعرف مواقع هذا النمط من الاستيطان "بالمستوطنات الصيفية" (Summer Camps) وهي في العادة مؤقتة، وتمثل مواضع انتشار الادوات الحجرية في مناطق مكشوفة، اي في العراء.

ومما يستلفت النظر هنا، إن نمط الاستيطان قد رسمه كل من الإنسان، اي المجموعات الصغيرة المعروفة باسم (Bands) والمناخ والبيئة الطبيعية مشتركا. فقد حددت هذه المجموعات البشرية المسار، وقيدت الطبيعة هذا المسار اكتـــاف وديـــان ومقتربات انهار. واتخـــذت هذه المحطات أو مواضع الاستيطان الصيفية متعرجا تبعا لمصادر المياه المذكورة. تعرفنا على هذا النمط الاستيطاني من خلال مجموعات الادوات الحجرية التي تركتها لنا الجماعات البشرية المتنقلة بين كهوف العبيدية في فلسطين

مرورا بموقع في سوريا يعرف باسم "اللطامنة " وعبور تلك الجماعات نهر الفرات ضمن منطقة تقع بين مدينتي عانة وحديثة على الفرات، في نقطة لا تبعد عن بغداد أكثر من (٣٠٠) كم شمال غربي العاصمة[٧].

جاءت هذه المجموعات لتستقر فترة من الوقت وتنعم بمياه الفرات وما جاوره من نباتات صيد، وهي تنتشر في اثنتي عشرة نقطة، إحداها مركزية تطل مباشرة على الكتف الشرقي للنهر، وتدعى باسم "المصنع". من هذه المنطقة اتجهت جماعات الصيادين عبر أراضي الجزيرة مناطق السهول الغنية في شمالي العراق لتستقر ثانية ببعض المواضع احدها يعرف بموضع الشيخ حسن في جزيرة الموصل، عبر هذا الخط الطويل بين جنوبي اليمن وشمالي العراق لنا المجموعات البشرية المتجولة ذهابا وايابا خلال مواسم الدفئ مخلفة أدوات حجرية ذات طرز صناعية متماثلة، كما ذكرنا الى حوالي النصف مليون سنة مضت.

وفي فترة العصر الحجري الحديث حيث اكتشاف الزراعة كما ذكرنا، نلاحظ أن الاستيطان يتباين في أنماطه تبعا لتباين مناطق الزراعة نفسها، نعني بذلك المنطقتين المناخيتين اللتين تأثر بهما الاستيطان في المشرق العربي بشكل خاص، وهما: المنطقة المطرية حيث الزراعة (الديمية) أي المعتمدة في سقيها على هطول الأمطار والمنطقة المتسمة بالجفاف والتي تعتمد على الزراعة (السيحية) أي الزراعة المباشرة المعتمدة على الأنهار وتفرعاتها بالمناطق السهلية.

في المناطق الديمية لا تجابه مشكلة في زراعة المحاصيل الشتوية وحتى الصيفية إضافة الى وجود الغابات والأشجار المثمرة أن مواضع الاستيطان في هذه المناطق ليست كبيرة بشكل عام وانها تنتشر باتجاهات مختلفة ومرهونة بالأرض الخصبة المتوفرة، نجد أمثلة لهذا النمط من الاستيطان عند منحدرات المرتفعات الجبلية والهضاب في المشرق العربي، ومن أمثلة هذا النمط من الاستيطان ينتشر عند ضفاف الأنهار والهضاب واكتاف نهري دجلة والفرات ووادي الثرثار في العراق[٨]. وعند سفوح مرتفعات منطقة النخيل في دولة الامارات العربية المتحدة[٩] .

وفي جنوبي الجزيرة العربية (اليمن)، حيث انتشار نمط الاستيطان المدرج ومثله الزراعة المدرجة. في بيئة طبيعية كهذه نجد أن أي امتداد للاستيطان يتجه حيثما وجدت العيون والينابيع او ضفاف الأنهار.

وضمن المناطق الديمية بالمشرق الغربي، نجد أن مناطق السهول تؤهل التركز الاستيطاني والانتشار الأفقي، خصوصا حين يقترب هذا الاستيطان الى ضفاف الأنهار ومشارف الوديان.. ومن أمثلتها وادي سبأ في اليمن، وشبكات قنوات الإرواء والسواقي الكثيرة[١٠].

وبالمثل نلاحظ أعمال الزراعة والري في محيط مجرى نهر النيل في مصر، إضافة لحوض الدلتا والتشعبات الكثيرة لفرعي رشيد ودمياط، حيث تركز الاستيطان الفرعوني وما تلاه حتى يومنا هذا[١١].

وعند الانهار يبدو لنا نمطين من الاستيطان، احدهما منظم وطوعي تدخل فيه إرادة الإنسان بأجلي صورها،ذلك هو الاستيطان داخل الأحواض النهرية الغرينية ذات الأراضي المنبسطة المقاربة في ارتفاعها لمستوى النهر. والنمط الآخر عند نفس الأنهار نجده مقيدا بأكتاف صخرية على جانبي النهر. فالنمط الأول يقع داخل أراضي سهلية تسقى بواسطة سواقي وقنوات تتغذى بالمياه مباشرة من النهر المجاور او القريب، لتشكل اذرعا كبيرة له، تخرج عنها شبكات إرواء تلحقها سواقي كثيرة لإرواء

الملكيات الزراعية العامة او الخاصة، وأراضي زراعية كهذه قد شكلت في الماضي مناطق مهمة لاستقطاب المجمعات السكانية الكبيرة.

سمحت هذه الأراضي الزراعية بإنشاء (مراكز حضارية) كبيرة ذات سعة متفاوتة أضحت في فترات نموها وازدهارها مراكز إشعاع حضاري عكسه واقع الاستيطان القديم في السهل الرسوبي ببلاد الرافدين وأراضي الدلتا في ارض الكنانة. فبالإضافة للسعة المساحية وإمكانية الاستيعاب السكاني الضخم لهذا الاستيطان نجد ان نظام كان يقوده، ذلك هو نشوء (المراكزCenters)، اي المستوطنات الكبيرة التي تدور في فلكها توابع بشكل مدن اصغر مساحة، ولهذه المدن الصغيرة حويصلات كثيرة تحيط بها وترفدها بالمحاصيل الزراعية، تلك هي القرى الزراعية الممتدة في افاق المدن المذكورة ومصدرا للمحاصيل المتنوعة(١٢).

تصب هذه التوابع مجتماً، كبيرها وصغيرها، بمنتجاتها الزراعية والحيوانية في المراكز... حيث الاستهلاك العالي للغذاء تخزين فائض الإنتاج وتوزيعه الى مناطق الاحتياج ضمن الإقليم أو خارجه عن طريق التجارة المحلية التبادلية او التجارة الدولية عبر المسافات الطويلة (Long Distance Trade) وفي حالات، نجد الوديان الصغيرة تلعب دورا نفس الدور الذي تقوم به الوديان الكبيرة.. ومن أمثلة هذه الوديان، وادي سبأ باليمن، ففي مواسم المطر نجد أن الوادي يشكل نهرا كبيرا جاريا. وفي مواسم شحة الأمطار كان الوادي والأراضي الخصبة يساعدان على الاحتفاظ بدوره المهم، واكبر شاهد على ذلك وجود سد مأرب الشهير في التاريخ. وفي منطقة وادي سبأ تمتد القنوات الاروائية الطويلة والمتشعبة. شيدت هذا القوات ومثلها السواقي ومعها القناطر والجسور بقطع الأحجار الكلسية المهندمة وغير المهندمة، كل حسب موقعها، لتغطي الاحتياجات البنائية عبر الأراضي الزراعية الغنية في مملكة سبأ.. تنتشر المستوطنات هنا وهناك،وحيثما امتدت اذرع القنوات الاروائية وتوابعها(١٣).

اما النمط الثاني للاستيطان، عند الانهار بشكل خاص، فهو استيطان خطي (Linear Distribution of Settlement) حيث لم تترك الاكتاف الصخرية العالية للنهر سوى شريط زراعي يضيق ويتسع تبعا لالتواءات النهر نفسه، ويمتد الاستيطان بامتداده وينعطف حيثما انعطف النهر. وعلى العكس من النمط الاستيطاني الاول/ السابق حر الانتشار، نجد أن الاستيطان هنا، ومن الناحية الحضارية، يأتي مشوشاً، بل ومخربا بسبب توالي السكن على المستوطن الواحد ولعدة فترات، حيث استخدمت نفس احجار المباني السابقة في بناء وحدات المستوطنات الجديدة وبالإكراه الذي فرضته طبيعة مجرى النهر، بين الاكتاف الصخرية. هذا النمط من الاستيطان نجده على الفرات في الأراضي السورية وفي الهضبة الغربية بالعراق. ان تحديد الاستيطان بهذا الشكل، اي ضمن شريط ضيق من الاراضي الزراعية على جانبي النهر، لم يكن من استغلال البيئة الطبيعية الى أقصى درجة ممكنة.. لذا نراه يشمل الجزء الكائن في وسط النهر.. وإذا ذهبنا أكثر من ذلك.. لابد أن نتعرض لابتكار فريد من نوعه، خرج بالاستيطان الى الهضبة التي تقوم على الاكتاف الصخرية كما اشرنا الى ذلك. هذا الابتكار، هو إنشاء دواليب خشبية كبيرة تدور بقوة تيار الماء وترفعه الى الأراضي الزراعية التي تعلو عن مستوى مجرى النهر.. تشغل هذه الدواليب في رقعة جغرافية محددة ينحدر فيها الفرات بشكل يؤهل لدورانها بيسر وفاعلية عالية، هذه المنطقة تقع حصرا بين بلدة دير الزور السورية وبين مدينة هيت(١٤).

وحين نبتعد عن احواض الأنهار وضفافها، نأتي على طبيعة من نوع آخر، بيئة خبرها كل الوطن العربي وتعايش معها، تلك هي الأراضي الصحراوية والمتصحـــرة التي تغطي مناطق شاسعة منه، نجد أن الاستيطان هنا ضعيف الى أقصى حد، والمستوطنات القائمة صغيرة بشكل عام ولاتملك الخيار في التوزع والاتساع.. وأمثلة ذلك كثيرة في الوطن العربي.

وحين نأخذ ليبيا انموذجا لهذا النمط من الاستيطان في عرض الصحراء حيث تشاهد كهوف وملاجئ فيها الرسوم الصخرية المعبرة، وهي تمتد عبر الأراضي الجزائرية والسودانية(١٥).

نمط آخر فريد كسابقه زودتنا به المنطقة الشرقية في ليبيا، وهي تعرف بالجبل الأخضر- نسبة الى طبيعتها الزراعية الغناء. تضم هذه المنطقة كهوفا عالية وكبيرة سكنها قبل قرون أهالي المنطقة ممن اهتموا بتربية النحل وانتاج العسل الجيد؛ اشتهرت هذه الكهوف كذلك في العصر الحديث بعد أن اتخذها القائد عمر المختار مقرا خلال كفاحه ضد الاستعمار الايطالي.. يربط بين هذه الكهوف الشاهقة جسورا خشبية عريضة ويرقى اليها بوساطة سلالم معمولة من الحبال والعصي يمكن سحبها الى الأعلى وقت الحاجة كي لا يطالها العدو(١٦).

وغير قليلة هي المستوطنات، سواء تلك التي شيدت في البلاد العربية، او تلك التي انشات على سواحل البحر الابيض المتوسط خلال فترات الاحتلالات الاغريقية- الرومانية، تركزت واتسعت كثيرا في بلاد المغرب العربي، وكثيرا منها أسست في العراق والمشرق العربي(١٧).

وبخصوص مواضع الاستيطان التي بناها العرب المسلمون في اماكن كثيرة خلال حروب التحرير في الوطن العربي وفي أقاليم آهلة بالسكان ولغاية اليوم، عاشت تلك المستوطنات وازدهرت في عيشها على نفس الغلال التي ترفد حياة السكان في يومنا هذا .

مع ذلك، نجد في أقطار البلاد العربية نمطا آخر من الاستيطان، وهو سكنى القبائل البدوية في الخيام. انه نمط عام ارتبط بحياة كل الصحارى. انه في العادة استيطان مترحل عموما وشبه مستقر في حالات كثيرة منه حين تتوفر المياه الكافية والصالحة في مناطق الواحات او المناطق التي تحوي مياه جوفية ومنها مناطق الآبار التي تحفر في قيعان الوديان. فحتى لو أنشات منازل الى جانب الخيام فان نمط الاستيطان يبقى متأرجحا بين السكن الثابت المرتبط بمصادر العيش البسيطة المتوفرة وبين حياة الترحال في الصحراء، حيث يقوم بعض افراد القبيلة في التجوال خلال مواسم الرعي للماشية والابل والعودة ثانية الى الديار.

في الحقيقة فان نمط الاستيطان هذا يذكرنا بالحياة شبه البدوية التي عاشها الأسلاف الآموريين في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. والى جانب مـــا ورد، حـــري أن نتعرض لنمط استيطاني خيطي استوجبته وظيفة الاستيطان من جهة وعوامل التأسيس من جهة أخرى. نعني بذلك المستوطنات المقامة على امتداد الأنهار والوديان وعلى مسالك الواحات ومنابع المياه الأخرى، وبالتالي المواقع الكائنة على سواحل البحار والخلجان في الوطن العربي. تلك هي المستوطنات ذات الوظيفة التجارية فهي قد تكون متباعدة في انشاءها، وخصوصا عند السواحل البحرية والخلجان لكن مواضعها متباعدة حسب صلاحية هذه السواحل والخلجان لرسو واقـــلاع السفن تبعا للأعماق المتفاوتة، كمـــا نجـــد ذلك على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، ومنها السواحل الليبية الطويلة، وكذلـــك سواحـــل الخليج العربي والبحر العربي وسواحل البحر الأحمر.

الاستيطان ذو انتشار طولي وطوعي ومستثمر لكل إمكانات البيئة الطبيعية المحيطة به، فقد اثبت هذا النمط من الاستيطان صلاحيته في التأسيس والديمومة ربما منذ حوالي ستة آلاف سنة.حيث نجد السفن الشراعية السومرية تبحر من جنوبي بلاد الرافدين عبر الساحل الغربي للخليج العربي لتحط تلك السفن في دلمون (البحرين القديمة)، ثم تستأنف رحلتها إلى مجان (عمان)، ومنها تتجه نحو المناطق الشرقية للهند، ومنها تذهب البضائع التجارية إلى ملوحا أو ملوخا (وهي قد تكون في حياض افغانستان الحالية) من اجل جلب الذهب والأحجار الكريمة،الفيروز والازورد [١٨].

وبالمثل استقبلت سواحل أقطار الشمال الأفريقي السفن الشراعية للبحارة الفينيقيين العرب ليجدوا فيها الملاذ الأمن بعد دفع الأشوريين لهم من شواطئ لبنان وإقامة حضارتهم الزاهرة هناك.. وهي نفس السواحل التي تعرضت فيما بعد لغزوات الإغريق ومن بعدهم الرومان تحت ذرائع احتلالية.. تبعتها في العصور الوسطى والعصر الحديث احتلالات الغرب الاستعمارية التي غطت كل السواحل العربية، وامتدت براثن هذه الموجة الاستعمارية حتى اليوم تحت حجج وأساليب مختلفة .

الهوامش

(١) Abdul-Amir,sabahjasim Archaeological Survey of Ancient Settlements and Irrigation Systems in the Middle Euphrates Region of Mesopotamia ,Chicago :The University of Chicago ,UnpublishedPh.D Dissertation) , ١٩٨٨ : ٧٩ – ٨٣.

(٢) Abdul-Amir : ١٩٨٨ :١٠٣ – ١٠٩ .

(٣) Abdul-Amir : ١٩٨٨ : ١٠٩ – ١١٣

(٤) Abdul-Amir : ١٩٨٨ : ١١٤ff.

(٥) الشكري، صباح جاسم دور أعمال المسح الآثاري في كتابة تاريخ العراق القديم آثار الرافدين، كلية الآثار،جامعة الموصل، العدد:١:-٢٠١٢ ص٧٥-٨٢.

(٦) المصدر السابق

(٧) Abdul-Amir : ١٩٨٨ :١٠٣ – ١٠٩

(٨) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط١، ج١ (الوجيز في حضارة وادي الرافدين)، بغداد: مطبعة الحوادث، ١٩٧٣.

(٩) الشكري، صباح جاسم الدربحانية، ميناء إسلامي في رأس الخيمة (دولة الإمارات العربية المتحدة) الآداب، العدد٧٥: ٢٨٩-٣٠٧-٢٠٠٦.

(١٠) القيسي، ربيع محمود سامي وصباح الشكري دراسة ميدانية لمسوحات مواقع أثرية في شطري القطر اليماني، بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٢.

(١١) Butzer Karl W. Early Hydraulic Civilization in Egypt: Chicago, The University of Chicago Press, ١٩٧٠.

(١٢) فيبر، ماكس المدينة، بناؤها وشروط قيامها، الفكر العربي، العدد٢٩، بيروت: معهد الانماء العربي: ٨-٢٦، ١٩٨٢.

(١٣) القيسي والشكري، ١٩٨٢.

(١٤) Abdul-Amir , ١٩٨٨ : ٢٩ -٤٢

(١٥) موري، فابر فيتشيو (ترجمة عمر الباروني وفؤاد الكعبازي) تادرارت اكاكوس،الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ، طرابلس: مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، ليبيا ١٩٨٨ .

(١٦) الحلاق، داود اوشاز الأسلاف (دراسة موجزة عن الكهوف المعلقة بالجبل الاخضر). ط١، بنغازي: دار الكتب، مطابع الثورة للطباعة والنشر، ١٩٨٧.

(١٧) شامو، فرانسوا (ترجمة د.محمد عبدالكريم الوافي) في تاريخ ليبيا القديم، الاغريق في برقه: الاسطورة والتاريخ، ط١ بنغازي، جامعة قار يونس، ١٩٩٠.

(١٨) W.W. Hallo Trade And Traders in the Ancient Near East: Some New Perspectives, Paris: ١٩٩٢: ٣١٣–٣٣٦.